الفصل الخامس

صهيونية أم يهودية

صهيونية أم يهودية؟

الصهيونية هى الفلسفة القومية لليهود، تنطوى فى جوهرها على حمل اليهود على المحافظة على معتقداتهم وتقاليدهم، ورفض كل اندماج فى المجتمعات التى يعيشون بينها، وتدعوا إلى ضرورة تكوين مجتمع يهودى محض له دولته الخاصة فى فلسطين، ومناشدة اليهود فى العالم إلى الهجرة من جميع بقاع الأرض إلى فلسطين التى يسمونها أرض الميعاد[١].

ويسعى القائمون على أمور التجمع اليهودى الإسرائيلى سعيًا دؤوبًا إلى تمييع الحدود بين الإسرائيلى والصهيونى واليهودى، حتى أن المؤتمر الصهيونى السابع والعشرين الذى انعقد عام ١٩٦٨م يعتبر أن محاولة التفريق بين الصهيونية وبين الشعب اليهودى محاولة إجرامية لتضليل الرأى العام[٢].

وفى هذا الصدد يقول "ليفى أشكول" إن الصهيونية هى أم الثورة اليهودية. فهى التى جاءت بى وبمن سبقنى وبمن سيأتى بعد ذلك إلى أرض إسرائيل. نحن يهود إذن نحن صهيونيون. فأعداؤنا لا يربطون العداء للسامية بالصهيونية عبثًا، وفى الوقت الذى يتعرضون لنا يقولون أنهم ليسوا ضد اليهود بل ضد الصهيونية فقط[٣].

ويكفى أن نشير فى هذا الصدد إلى تعريف أهداف الصهيونية كما وردت فى مقدمة قرارات المؤتمر الصهيونى السابع والعشرين: "أهداف الصهيونية هى: وحدة الشعب اليهودى ومركزية دولة إسرائيل فى حياة الشعب. تجميع الشعب اليهودى

---

(١) حسين اتريكى (١٩٧١) . هذه فلسطين. تونس: الشركة التونسية للتوزيع. ص١٧ .

(٢) المؤتمر الصهيونى السابع والعشرون (١٩٦٨). مؤسسة الدراسات الفلسطينية، مركز الدراسات الفلسطينية والصهيونية (١٩٧١).

(٣) المرجع السابق.

فى وطنه التاريخى أرض إسرائيل بالهجرة من جميع البلاد. تدعيم دولة إسرائيل القائمة على نبؤة الأنبياء فى العدل والسلام. المحافظة على خاصية الشعب بتطوير التربية اليهودية والعبرية وبث القيم الروحية والتربوية اليهودية. الدفاع عن حقوق اليهود فى جميع الأماكن التى يقيمون فيها"[١].

ورغم أن الصهيونية تقوم - فكراً وممارسة - على دعوة اليهود لاستيطان فلسطين كوطن قومى، إلا أن التجمع الإسرائيلى لا يضم الصهاينة جميعًا، حتى أن المؤتمر الصهيونى الثامن والعشرين الذى انعقد فى القدس فى الفترة من ١٨ - ٢٨ يناير عام ١٩٧٢م قد شهد تفجيراً لتلك المشكلة تمثل فى اقتراح تقدم به "يجيئيل ليكيط" زعيم شباب حزب العمل الإسرائيلى قائلاً: إننا نريد أن نفرض على كل صهيونى واجب الهجرة إلى إسرائيل. ليتوقفوا عن الحديث عن الهجرة وليهاجروا فعلاً، وفى طليعتهم الزعماء ليكونوا قدوة للشباب اليهودى[٢].

إن الصهاينة الإسرائيليين يسعون إلى أن يصبح اليهود جميعًا صهاينة، وأن يأتى هؤلاء الصهاينة اليهود جميعًا إلى إسرائيل، ورغم هذا السعى فإن صهيونيًا مثل "يسرائيل جولد شتاين" يدرك أن ذلك أملاً وليس واقعًا، فيقول فى خطابه فى المؤتمر الصهيونى السابع والعشرين: من المحتمل أن يهاجر إلى إسرائيل يهود غير صهيونيين لأسباب مختلفة، وستحتاج إسرائيل إليهم وسترحب بهم من أجل كيانها ومستقبلها[٣].

وتؤكد "جريس هالسيل" فى كتابها: النبؤة والسياسة، فى الفصل العاشر منه، وهى تبحث عن صهيونية غير يهودية أن حضورها بعض المؤتمرات المسيحية، ومحاورتها لبعض المفكرين، وتأملها فى بعض الوقائع المعاصرة، كل هذا كشف

---

(١) المرجع السابق.

(٢) أنظر: قدرى حفنى (١٩٧٥). دراسة فى الشخصية الإسرائيلية "الأشكانزم". القاهرة: مركز بحوث الشرق الأوسط، جامعة عين شمس.

(٣) المرجع السابق، ص ٨٦.

لها أن المسيحيين البروتستانت هم المسيحيون الوحيدون المدافعون عن الصهيونية، وأنهم قد عملوا على جعل فلسطين تخص اليهود. وها هو "فان دير هوفن" الناطق باسم الكنيسة العالمية يحث كل اليهود الذين يعيشون خارج إسرائيل على ترك الدول التى يعيشون فيها والذهاب إلى الدولة العبرية. ونظراً لإدراك المسيحيين الصهيونيين مدى المعاناة التى واجهها اليهود، فإن على كل مسيحى أن يسهل لهم ذلك. وفى فبراير ١٩٨٣م يصرح القس "فولويل" لصحيفة "كوريو تايمز تلجراف" فى تكساس بأنه قد بارك الله أمريكا لأننا تعاونا مع الله فى حماية إسرائيل العزيزة.

والباحث الحالى يرى أن اتجاه المسيحيين البروتستانت أو اتجاه القس السابق ذكره إنما يأتى من الإيمان بالنصوص الواردة فى العهد القديم عن بعض النبؤات الخاصة باليهود من أنهم شعب الله المختار وأنهم . . . إلخ.

ورغم ذلك فقد قررت اللجنة التنفيذية الصهيونية فى يوليو عام ١٩٦٩م إحصاء الصهاينة فى مختلف البلدان التى تتواجد فيها الطوائف اليهودية، والتى يسمح فيها بممارسة النشاط الصهيونى العلنى المنظم، وقد انتهت عملية الإحصاء فى يونيو عام ١٩٧١م وقد شملت (٣٣) بلداً تضم ثمانية ملايين ومائتين وتسعة وثمانين ألفًا وأربعمائة وخمسين يهوديًا قبل منهم التسجيل فى عضوية المنظمة الصهيونية العالمية ثمانمائة وثمانية وتسعين ألفا ومائة وستة وأربعين يهوديًا أى بنسبة حوالى ٩٪ فقط. وذلك يعنى دون تقيد بتلك النسبة الضئيلة أن من اليهود المنتشرين فى شتى أنحاء العالم من لا يمارس نشاطًا صهيونيًا. وفضلاً عن ذلك فإن هناك يهوداً يتخطون ذلك الموقف إلى حد العداء الصريح وبدرجات متفاوتة للصهيونية فكراً وممارسة وإن تباينت منطلقاتهم الفكرية المؤدية إلى ذلك الموقف.

وتأسيسًا على ما سبق يقترح الباحث مقولة: "كل صهيونى يهودى، وليس كل يهودى صهيونى" فكل من يؤمن بالصهيونية معتقداً وفكراً هو بالضرورة صهيونى الفكر والتكوين، لأنه يعتمد فى ذلك على نصوص وردت فى العهد

القديم، فهو يؤمن بها ويمتثل إليها، ومثال ذلك الأديب والكاتب المسيحى الهولندى المولد، الأمريكى الجنسية الذى اجتذبته الصهيونية فى أعقاب زيارته لفلسطين عام ١٩٢٥م حيث منح فى تلك السنة لقب المواطن الفخرى لمدينة تل أبيب، وأبدى نشاطًا عمليًا متزايدًا فى تأييد الصهيونية خلال الحرب العالمية الثانية، فضلاً عن إصداره عام ١٩٤٣م كتابه "الحليف المنسى" الذى يتبنى فيه صراحة الدعوة إلى تدعيم إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين.

ويوضح "قدرى حفنى" أن الصهيونية لا تمثل الموقف اليهودى كما يبغى الصهاينة، ولا هى تمثل موقفًا يهوديًا خاصًا بل إنها موقف من اليهودية قد يتبناه أو يرفضه أو يتجاهله يهود أو غير يهود[١].

بينما يتبنى الباحث الحالى رأى "عبده الراجحى" فى أن اليهود المعاصرين ليسوا إلا امتدادًا لأولئك اليهود القدامى الذى تحدثت عنهم الكتب السماوية وكتب التاريخ، وقد بين ذلك فى كتابه: "الشخصية الإسرائيلية"، حيث يقول: "لقد دأبنا جميعًا فى الفترة الماضية على التمييز بين اليهودية والصهيونية، والواقع أننا بهذا وقعنا فى خطأ كبير، وذلك أن الدارس الموضوعى لحياة الشعب الإسرائيلى يعلم أن هناك حقيقة هامة لا ينكرها باحث، بل لا ينكرها الإسرائيليون أنفسهم فضلاً عن أنهم يعتزون بها ويدعون لها وهى أن الإسرائيلية واليهودية والصهيونية ألفاظ مترادفة لمعنى واحد. فاليهود هم الصهيونيون، والصهيونيون هم اليهود"[٢].

وفى هذا الصدد يقول حامد ربيع: "إن الصهيونية هى تعميق لليهودية مذهبًا وتصورًا حضاريًا للوجود السياسى، فهى تعبر عن اليهودية فى إحدى مراحلها من جانب، وفى أحد تطبيقاتها بالوجود السياسى من جانب آخر، دون أن تفقد التصور الحضارى بل تؤكده وتعلن صراحة أن ما تريده هو نقل اليهودية من مفاهيم

---

(١) قدرى حفنى (١٩٧٥). دراسة فى الشخصى الإسرائيلية، ص ٨٩.

(٢) عبده الراجحى (١٩٦٩). الشخصية الإسرائيلية. القاهرة: دار المعارف. ص٩ .

حضارة العصور الوسطى التى عرفتها اليهودية فى العصور الأوروبية إلى مفاهيم عصر النهضة أى التصور الغربى اللاحق للثورة الفرنسية»[1].

إن الصهيونية هى حركة يهودية دينية سياسية تهدف إلى إعادة مجد إسرائيل بإقامة دولة يهودية فى فلسطين، وهى تمزج بين السياسة والدين، وتتخذ الدين ركيزة تقوم عليها الدعوة السياسية.

فالأفكار والمعتقدات واحدة، فلما التفريق؟! واليهود هم أهل التحريف للكلم عن مواضعه، قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾[2]، وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾[3].

وقد تنبأ المسيح عيسى عليه السلام بهذا التحريف فقال: «٦فَقَدْ أَبْطَلْتُمْ وَصِيَّةَ الله بِسَبَبِ تَقْلِيدِكُمْ! ٧يَا مُرَاؤُونَ! حَسَنًا تَنَبَّأَ عَنْكُمْ إِشَعْيَاءُ قَائِلاً: ٨يَقْتَرِبُ إِلَيَّ هذَا الشَّعْبُ بِفَمِهِ، وَيُكْرِمُنِي بِشَفَتَيْهِ، وَأَمَّا قَلْبُهُ فَمُبْتَعِدٌ عَنِّي بَعِيداً. ٩وَبَاطِلاً يَعْبُدُونَنِي وَهُمْ يُعَلِّمُونَ تَعَالِيمَ هِيَ وَصَايَا النَّاسِ»[4].

ويقول النبى إيليا: «وَكَانَ كَلاَمُ الرَّبِّ إِلَيْهِ يَقُولُ: ٩مَا لَكَ ههُنَا يَا إِيلِيَّا؟» ١٠فَقَالَ: «قَدْ غِرْتُ غَيْرَةً لِلرَّبِّ إِلهِ الْجُنُودِ، لأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ تَرَكُوا عَهْدَكَ،

---

(١) فى: حميدة سميسم، الحرب النفسية، ص٢٠٧ .

(٢) المائدة: ١٣ .

(٣) المائدة: ٤١ .

(٤) متى ١٥: ٦ - ٩ .

وَنَقَضُوا مَذَابِحَكَ، وَقَتَلُوا أَنْبِيَاءَكَ بِالسَّيْفِ، فَبَقِيتُ أَنَا وَحْدِي، وَهُمْ يَطْلُبُونَ نَفْسِي لِيَأْخُذُوهَا»[1].

وهم الذين يعلمون الحق ولا يعملون به لذلك ضرب الله مثلهم بأجهل الحيوانات الذى يحمل فوق ظهره أسفاراً من العلم لكنه لا يعمل بها فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥) قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧)﴾[2].

وهذا ليس بغريب على أمة الغضب واللعنة فهم دائمًا متواطئون على تحريف الكلم عن مواضعه، وعلى التحايل على المحرمات فقد تحايلوا على الصيد يوم السبت فعاقبهم الله على ذلك بأن مسخهم قردة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥)﴾[3]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (٤٧)﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (١٥٤)﴾[5]، وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا

---

(١) الملوك الأول ١٩: ٩ - ١٠.

(٢) الجمعة: ٥ - ٧.

(٣) البقرة: ٦٥.

(٤) النساء: ٤٧.

(٥) النساء: ١٥٤.

الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٧)﴾[1].

فهذا اليهودى المولود فى فجاج الأرض المتباعدة شرقًا وغربًا يتأجج فى صدره شوق إلى أرض ما رآها، وإلى جمع أمته بعد طول شتات، فيأتى على حرارة هذا الشوق يقطع الفيافى والقفار والبحار ليزرع نفسه فى أعماق أمة غافلة بالحيلة أو بالقوة. اليهودى الذى أشربه "التلمود" كل أحقاد الوجود لا يخجل من الانتساب لدينه البالى، ويتباهى بتاريخه المشين، ويلتزم هذا وذاك حتى فى الأسماء فيسمى دولتهم باسم "إسرائيل"، ويطلق على خطته الحربية اسم "خيبر"، ويقبل التراب على أرض "التيه"، "والهيكل"، وترنو أبصار قادته ليوم الثأر لمصارع أسلافهم الغادرين من "قريظة وخيبر". إنها حرب عقيدة، وصراع دين، وثأر أحقاد قديمة، وقضية استرداد واستيطان[2].

فاليهودية تحمل فى أعماقها خصائص نفسية بالغة التعقيد، وتنطوى على أخلاق غاية فى العوج والالتواء، ولذلك تموج صدورهم بحقد طافح على الناس جميعًا، وتتأجج جوانبهم بوخز هذا الغل المحتدم، فيسعون فى الأرض فسادًا، ولا يرون لأنفسهم راحة أو سعادة إلا على أنقاض الآخرين، ولا يستريحون إلا بالدس والكيد والتآمر والبغى والتخريب والانتقام.

فطبيعة اليهود فى كل زمان ومكان ثابتة لا تتغير، فالجوهر اليهودى الخالص (الثابت) هى فكرة كامنة وراء عديد من المفاهيم والمصطلحات والنماذج التفسيرية المُستخدَمة فى دراسة الجماعات والعقائد اليهودية، مثل: "التاريخ اليهودى"

---

(١) الأعراف: ١٦٣ - ١٦٧ .

(٢) عبد الستار فتح الله سعيد (١٤١١هـ). معركة الوجود بين القرآن والتلمود. (ط٤). القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية. ص٢٦.

و"الشخصية اليهودية" و"العبقرية اليهودية" و"الجريمة اليهودية" و"الشعب اليهودى" و"العرْق اليهودى". فكل هذه المصطلحات تفترض وجود هذا الجوهر اليهودى الخالص الثابت الذى يجعل من يهودية اليهودى النقطة المرجعية الأساسية لتفسير سلوكه. أما العناصر غير اليهودية، مثل السياق الحضارى الإنسانى الذى يوجد فيه أعضاء الجماعات اليهودية، أو حركيات المجتمعات التى ينتمون إليها، أو تفاعلهم مع أعضاء الأغلبية، بل والعناصر الإنسانية المشتركة مع بقية البشر، فهى عناصر يُفترَض فيها أنها عَرَضية تنتمى إلى السطح ولا تفيدنا كثيرًا فى تفسير الظواهر اليهودية، حيث يتم تفسير هذه الظواهر من الداخل فقط[1].

ويؤكد ذلك تنبيه الرئيس الأمريكى "بنيامين فرانكلين" فى المؤتمر الذى انعقد لإعلان الدستور الأمريكى سنة ١٧٨٩م حيث يقول: "هناك خطر عظيم يهدد الولايات المتحدة، وذلك الخطر هو اليهودية ... إن عقليتهم تختلف عنا، حتى لو عاشوا بيننا عشرة أجيال فإن النمر لا يستطيع أن يغير جلده"[2].

وإنه لأمر عجاب أن توجد أمة من البشر على هذا النمط، وتمتد فى سلسلة واحدة عبر الأزمنة والأمكنة، وتتأصل فى أجيالها جميعًا كل خلائق السوء. ويكاد العقل ينكر هذا للوهلة الأولى ولا يصدق استمرار هذا السعار النفسى فى الجيل بعد الجيل على امتداد أكثر من ثلاثة آلاف سنة!! ولكن هذا هو واقع اليهود الفعلى، بل هو دينهم الذى صنعوه لأنفسهم، وأشربته قلوبهم على تعاقب القرون والأجيال حتى صار كأنه سليقة مكتسبة تنتقل مع حاملات الوراثة إلى دماء الأخلاف عن الأسلاف. فالمشكلة اليهودية ترجع أساسًا إلى نوعية الشخصية اليهودية ذاتها وما درجت عليه من بغضاء وإيذاء.

فالشخصية اليهودية متولدة من تعاليم التلمود الحقود، إنها شخصية شيطانية بكل معانى الكلمة، فيشب الصغير ويشيب الكبير على هذه التعاليم وتنتقل

(١) المسيرى، ج٢، ص١ .

(٢) أحمد حجازى السقا (٣٠٠٢). طبائع اليهود. القاهرة: مكتبة زهران. ص٤٢ .

الأخلاق والصفات الدنيئة عبر الأجيال، وتتشابه بها قلوب اليهود فى كل مكان وزمان؛ لأنها تستقى من معطن واحد، والقرآن الكريم يحكم على أجيالهم - حتى المقبلة منهم - بأدوات الحصر والعموم، لأنهم فى الضلالة على كلمة سواء، وأنهم أمة واحدة فى العوج والالتواء، وقد تشابهت قلوبهم على امتداد الأجيال[1].

إن المتأمل فى حديث القرآن عن بنى إسرائيل يجد فيه ظاهرة عجيبة، غير معهودة فى الخطاب ولا العتاب ولا العقاب، فتجد القرآن يخاطب الأخلاف منهم بذنوب الأسلاف، ويحاسب الحاضرين عن سفاهات الغابرين، ويحكم على أجيالهم بأدوات الحصر والعموم، ويدمغهم جميعًا باللعنة والغضب، ويؤذنهم من قديم بأن الله سيبعث عليهم سوء العذاب إلى يوم القيامة إلا قلتهم الصالحة، يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣)﴾[2].

هؤلاء هم يهود المدينة حين دُعُوا إلى الإسلام قالوا: إن الله أوصانا فى التوراة ألا نصدِّق مَن جاءنا يقول: إنه رسول من الله، حتى يأتينا بصدقة يتقرب بها إلى الله، فتنزل نار من السماء فتحرقها. قل لهم - أيها الرسول -: أنتم كاذبون فى قولكم؛ لأنه قد جاء آباءكم وراء تخوم الجزيرة ورمالها الشاسعة - بعيدًا عن مكان المجىء والقتل بمئات الأميال ومئات السنين - رسلٌ من قِبلى بالمعجزات والدلائل على صدقهم، وبالذى قلتم من الإتيان بالقربان الذى تأكله النار، فَلِمَ قَتَل آباؤكم هؤلاء الأنبياء إن كنتم صادقين فى دعواكم؟

إنها نفسية واحدة متماثلة الخصائص والنقائص، فيتوجه إليها الخطاب على درجة واحدة، ويأتى عليها الحكم عامًا مطردًا لأنها لا تتغير عبر الزمان والمكان

---

(١) أنظر: معركة الوجود، مرجع سابق، ص ٧٨ .

(٢) سورة آل عمران: ١٨٣ .

والأجيال. يقول تعالى: ﴿يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٥٣)﴾[1] فالسائلون هم يهود المدينة، يطردون على داء قومهم القديم من عهد موسى حين سأله أجدادهم رؤية الله تعالى جهرة! ولهذا التماثل النفسى فى أصل الداء تسند الآية سؤال موسى - عليه السلام - للضمير العائد إلى أهل الكتاب الذين سألوا محمداً ﷺ رغم الفجوة الزمنية الهائلة بين العهدين.

فالتاريخ كواقع مادى لشعب من الشعوب هو تلك الأحداث المتتالية التى وقعت لذلك الشعب تاركة آثارها على أفراده. ومن خلال وحدة تلك التأثيرات يتحول ذلك الواقع المادى إلى واقع سيكولوجى، بأن تقوم الأجيال المتعاقبة لذلك الشعب بنقل تلك التأثيرات فى وحدتها من جيل لآخر، ومن هنا يمكن أن ينشأ ما يمكن أن يسمى بالإحساس بالتاريخ، أو ما يمكن أن نطلق عليه التاريخ كواقع سيكولوجى. وسبب هذا التعميم أن اليهود يشكلون أمة واحدة متماثلة النقائص النفسية، تفيض لؤمًا وغدراً وحقداً وكيداً، وتتمادى طغيانًا وكفراً كما رأيناهم عبر تاريخهم كله، رغم كثرة النذر والرسل والنعم والعفو المتكرر. لقد ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فتشابهت خصائصهم النفسية. أنظر إلى ذلك اليهودى الذى جاء إلى النبى محمد ﷺ يقول له: إن كنت رسولاً كما تقول فقل لله يكلمنا حتى نسمع كلامه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨)﴾[2].

أى: وقال الجهلة من أهل الكتاب وغيرهم لنبى الله ورسوله محمد ﷺ على سبيل العناد: هلا يكلمنا الله مباشرة ليخبرنا أنك رسوله، أو تأتينا معجزة من الله تدل على صدقك. ومثل هذا القول قالته الأمم من قبلُ لرسلها عناداً ومكابرة؛

---

(١) سورة النساء: ١٥٣ .

(٢) سورة البقرة: ١١٨ .

بسبب تشابه قلوب السابقين واللاحقين فى الكفر والضلال، قد أوضحنا الآيات للذين يصدقون تصديقًا جازمًا؛ لكونهم مؤمنين بالله تعالى، متبعين ما شرعه لهم. ولله فى حياة الأمم سنن جارية لا تتغير ولا تتبدل.

ونستطيع أن نبرهن على تعاقب الصفات النفسية من جيل إلى آخر بمثال، هو الجبن. فهو صفة موجودة فى كل الأجيال، وقد أكدها القرآن الكريم ودعمها بالأدلة التاريخية المتكررة فى كل عصورهم، وفى كل أجيالهم مهما تباعدت فى الزمان أو المكان، فتجد ذلك فى عهد موسى - عليه السلام - حين رفضوا دخول الأرض المقدسة، رغم إخباره - عليه السلام - بأن الله كتبها لهم، فيقص القرآن الكريم هذه القصة فى سياق بالغ التنديد والتقريع لهذه النفسية المتهالكة، فيقول تعالى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾[1].

وهنا يندلع الجبن اليهودى على أبشع هيئاته، فيطلب الجنود من قائدهم أغرب شىء فى تاريخ الحروب: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾[2].

وحين انبرت القلة المؤمنة - على ندرتها فيهم - وأخذت تذكرهم بالعقيدة، وتناشدهم الإيمان بالله والتوكل عليه: ﴿قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾[3].

فلم يزدهم ذلك إلا عناداً وإلحاداً ونكوصًا عن الجهاد: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾[4].

---

(١) سورة المائدة: ٢١ .

(٢) سورة المائدة: ٢٢ .

(٣) سورة المائدة: ٢٣ .

(٤) سورة المائدة: ٢٤ .

ثم جرف طوفان الجبن أمامه كل شيء حتى يئس موسى - عليه السلام - منهم تمامًا وقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦)﴾[1] يقول المفسرون: إن الله عاقب الذين امتنعوا عن دخول الأرض المقدسة بأمرين: أنه حرم عليهم دخول هذه الأرض أبدًا، والذين دخلوها هم أولادهم من بعدهم. وعاقبهم الله بالتيه فى الأرض مدة أربعين عامًا.

يقول الألوسى: "وكانت مسافة الأرض التى تاهوا فيها ثلاثين فرسخًا فى عرض تسعة فراسخ كما قال مقاتل. وقيل اثنى عشر فرسخًا فى عرض ستة فراسخ، وقيل كان طولها ثلاثين ميلاً فى عرض ستة فراسخ، وهى ما بين مصر والشام وذكر أنهم كانوا ستمائة ألف مقاتل، وكانوا يسيرون فيصبحون حيث يمسون، ويمسون حيث يصبحون"[2].

ولنا أن نتصور مدى الضنك الذى عوقبوا به حين يتحرك هذا العدد فى تلك المسافة على غير هدى ولا رشاد. وفى أثناء هذه المدة مات موسى - عليه السلام - ومات هارون من بعده. وتولى "يوشع بن نون" قيادة بنى إسرائيل، وقد فتح الله على يديه الأرض المقدسة.

أورد البخارى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال النبى ﷺ "غزا نبى من الأنبياء فقال لقومه: لا يتبعنى رجل ملك بضع المرأة وهو يريد أن يبنى بها ولم يبن بها، ولا أحد بنى بيوتًا ولم يرفع سقوفها، ولا آخر اشترى غنمًا أو خلفات وهو ينتظر ولادها. فغزا فدنا من القرية صلاة العصر أو قريبًا من ذلك فقال للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها علينا فحبست حتى فتح الله عليهم فجمع الغنائم فجاءت يعنى النار لتأكلها فلم تطعمها فقال: إن فيكم غلولاً

---

(١) سورة المائدة: ٢٥ - ٢٦ .

(٢) روح المعانى للألوسى، ٤: ١٦١ .

فليبايعنى من كل قبيلة رجل، فلزقت يد رجل بيده فقال: فيكم الغلول فليبايعنى قبيلتك، فلزقت يد رجلين أو ثلاثة بيده، فقال فيكم الغلول، فجاءوا برأس بقرة من الذهب فوضعوها فجاءت النار فأكلتها ثم أحل الله لنا الغنائم، رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا"[1] يقول ابن حجر: وهذا النبى هو يوشع بن نون.

وبعد أن دخلوا الأرض المقدسة اندلعت فيهم الجرائم والآثام، وحينئذ سلط الله عليهم - بذنوبهم - الكفار من حولهم فأذاقوهم الذل والهوان، ولما طال عليهم الإذلال هرعوا إلى نبى لهم يطلبون منه أن يعين لهم ملكًا يقودهم ليحاربوا أعداءهم، فصارحهم النبى بجبنهم وفرارهم ساعة العسرة، وصدقت توقعات النبى الكريم، وفى ذلك يقول القرآن العظيم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾[2] فى هذه الفترة (١٠٣٠ - ٩٠٥ق.م) حاولوا لم الشمل ومحاربة أعدائهم، ولكن الجبن المتأصل فيهم، وعصيان الأوامر. هذه القلة التى ثبتت فى أول الطريق وخرجت مع القائد الجديد "طالوت" خارت عزيمتها فى أول ابتلاء، يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾[3].

والآن نتجاوز آمادًا شاسعة من الزمان، حيث كان لليهود مركز متميز فى جزيرة العرب، ويمتلكون القلاع والحصون، ولكن طبيعتهم لا تختلف من عصر

---

(١) أنظر: فتح البارى شرح صحيح البخارى، كتاب فرض الخمس.

(٢) سورة البقرة: ٢٤٦ .

(٣) سورة البقرة: ٢٤٩ .

إلى عصر ولا من مكان إلى مكان، ولذلك يقرر القرآن الكريم قواعد أصيلة ومعايير صارمة لتقييم هذه الشخصية المعقدة، ويوضح لنا كيفية التعامل معها إلى يوم القيامة، فيقول تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ (١١١)﴾[1] إنها صفة من صفات كثيرة راسخة فى الشخصية اليهودية، "الجبن" وقد حاولنا أن نثبت عن طريق تشريح الشخصية اليهودية أنها صفة ملازمة لكل جيل من أجيالهم، وفى كل عصر، فهؤلاء اليهود أو الصهاينة أو الإسرائيليين ليسوا إلا امتداداً لليهود القدامى علم ذلك من علمه وجهله من جهله، ولا نلتفت إلى أراء خالفت صريح القرآن فى التكوين النفسى لليهود وأنهم تركيبة خاصة وثابتة لا تتغير عبر العصور والأجيال، حيث يرى بعض الباحثين أن التاريخ كواقع مادى لم يكن واحداً بالنسبة لليهود جميعًا، وأن التنشئة الاجتماعية لم تكن واحدة مهما بلغ حظها من التشابه، وهنا يكون الرد القرآنى المعجز: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

ولعلك تلاحظ أن أخطر أسرار التكوين النفسى لليهود هو "الحسد"، والمقصود حسد العباد على القرب من الله، حتى أصبحوا لا يطيقون رؤية عبد قريب من الله سبحانه وتعالى. ولعل حادثة العابد "جريج" التى سيأتى ذكرها دليل على ذلك، حيث لم يطيقوا رؤية "جريج" العابد فى صومعته، فتحايلوا عليه بالمرأة البغى حتى يفتنوه عن عبادته. ولم تكن هذه الخصلة فى أحد غيرهم، حتى أن الله تعالى حاسبهم عليها كما حاسب القاتل من ابنى آدم، تقرأ ذلك فى سورة المائدة: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧)﴾[2] حتى قال الله فى آخر القصة: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا

---

(١) سورة آل عمران: ١١١ .

(٢) سورة المائدة: ٢٧ .

قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾[1].

لأن الحكم يدور مدار العلة، فلما قامت العلة فى بنى إسرائيل، وهى الحسد على القرب من الله، كان لهم حكم القاتل من ابنى آدم بسبب حسده لأخيه على قربه من الله[2].

لقد كان الاستضعاف والقهر هما المصدر الأعلى لكل خصائص اليهود النفسية. وكانت أخطر الآثار النفسية المترتبة على فترة الاستضعاف، عدم وفائهم بالعهود وردهم الحقوق إلا بالقهر؛ لأنهم فقدوا حاسة الإرادة بالقهر الاجتماعى، لذلك أخذ الله عليهم عهد التوراة وقد رفع فوقهم جبل الطور، فأخذوا التوراة خوفًا من وقوع الجبل عليهم. ومن موقف الجبل المرفوع فوقهم يتبين أن فترة القهر والاستضعاف التى عاشتها بنى إسرائيل فى مصر أوجدت عندهم بلادة فى الإحساس، فأصبحوا لا يتأثرون بمجرد الخوارق، حتى أصبحت حياتهم كلها ذات طبيعة خارقة.

ومما يدل على طبيعة الخوارق فى حياة بنى إسرائيل ما رواه البخارى من حديث أبو هريرة: "حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا جرير بن حازم عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة عن النبى - ﷺ - قال: لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة: عيسى، وكان فى بنى إسرائيل رجل يقال له جريج، كان يصلى جاءته أمه فدعته فقال أجيبها أو أصلى، فقالت اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات، وكان جريج فى صومعته فتعرضت له امرأة وكلمته فأبى، فأتت راعيا فأمكنته من نفسها فولدت غلاما فقالت من جريج، فأتوه فكسروا صومعته وأنزلوه وسبوه فتوضأ وصلى ثم أتى الغلام فقال من أبوك يا غلام؟ قال الراعى. قالوا نبنى صومعتك

---

(١) سورة المائدة: ٣٢ .

(٢) أنظر: رفاعى سرور (٢٠٠٥). فى النفس والدعوة. ص ٢٨٢ - ٢٨٤ بتصرف.

من ذهب. قال لا إلا من طين. وكانت امرأة ترضع ابنا لها من بنى إسرائيل فمر بها رجل راكب ذو شارة فقالت اللهم اجعل ابنى مثله، فترك ثديها وأقبل على الراكب فقال اللهم لا تجعلنى مثله، ثم أقبل على ثديها يمصه، قال أبو هريرة كأنى أنظر إلى النبى ﷺ يمص إصبعه، ثم مر بأمة فقالت اللهم لا تجعل ابنى مثل هذه، فترك ثديها فقال اللهم اجعلنى مثلها، فقالت لم ذاك فقال الراكب: جبار من الجبابرة وهذه الأمة يقولون سرقت زنيت ولم تفعل"[1].

يقول رفاعى سرور[2]: "لعلك تلاحظ أن حواراً تم بين المرأة ورضيعها، ولم تلتفت إلى أنه يتكلم فى المهد، وكذلك حادثة موسى - عليه السلام - عندما كان يغتسل وحده بعيداً عن بنى إسرائيل"، فعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: "كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى بعض، وكان موسى - عليه السلام - يغتسل وحده. فقالوا: والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر، فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه، فخرج موسى فى إثره يقول: ثوبى يا حجر، حتى نظرت بنو إسرائيل إلى موسى فقالوا: والله ما بموسى من بأس. وأخذ ثوبه فطفق بالحجر ضربا. فقال أبو هريرة والله إنه لندب بالحجر ستة أو سبعة ضربا بالحجر"[3].

انظر: كيف أن بنى إسرائيل التفتت إلى أن موسى - عليه السلام - ليس به عيبًا، ولم يلتفتوا إلى الحجر وهو يجرى بثوب موسى!!

هذه الطبيعة الخارقة لبنى إسرائيل جعلتهم لا يتأثرون بالطرح الكلامى للرسالة. فتجد انقيادهم لموسى للخروج من مصر جاء بعد الآيات التسع التى أرسلها الله مع موسى لفرعون، واستمر الانقياد بعد انشقاق البحر.

والسؤال الآن: كيف انقلب الرعديد الجبان سفاحًا ثم جنديًا مقاتلاً؟

---

(١) رواه البخارى من حديث أبو هريرة، حديث رقم ٣٤٣٦ .

(٢) رفاعى سرور، مرجع سابق، ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٣) متفق عليه. أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة، حديث رقم ٢٧٨، ومسلم، حديث رقم ٧٩٦، ٦٢٩٥.